وكبر الفتى، وظل الرجل الريفي البسيط أقرب إلى فطرة الريفيين وأدنى إلى عفوية أهل القرى في فلسطين وبراءتهم. ولا غرو في ذلك، وهو سليل أسرة قروية متواضعة، وابن قرية صغيرة فقيرة لم يحاول أحد من أبنائها، سوى راشد، أن يرفعها من مهاوي انغمارها. وبموته وصل بها إلى دائرة السمع، وقريباً من حدود أن تعرف، ولا أقول أن تشتهر. وأكبر القرى حولها في فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨ هي «أم الفحم» تظل قرية كبيرة. ومثلها مثل غيرها من القرى، بل من بعض المدن الفلسطينية، نحس ان أهلها، بحكم ظروف حياتهم تحت الاحتلال، وبحكم عدم قيام الفوارق الواسعة بين الريف والمدينة في فلسطين، أميل إلى الإبقاء على روح القرية فيهم والحفاظ على الروح الشعبية، تشبثاً بجذورهم، وحماية لوجودهم أمام الغزو الصهيوني وأهداف الدولة الاسرائيلية في تذويب أهل البلاد في بوتقة الحياة اليهودية الغريبة. وتنعكس هذه الروح بوضوح في حياة شعراء المقاومة في الأرض المحتلة وفي نتاجهم الأدبي، حتى لدى أبناء المدن منهم. والأدباء هناك مقسومون قسمين، قسم استغرقه النضال منذ نعومة أظفاره، فكان عليه أن يفولذ هذه الأظفار مبكراً بالنضال الحزبي وبالعمل الوطني، وقسم انجرف مع هوى السلطات وتوجيهها فتحولوا إلى «العكاكير الثقافية التي حاولت السلطة الاعتماد عليها»[٤٧]. ويقف راشد حسين نموذجاً مختلفاً بين أولئك وبين هؤلاء، فقد ظل على نقاء نفسه وبساطتها الريفية، فلم تتعقد نفسه، وإنما تعقدت حياته فحسب. وبقي محافظاً على هذا التوازي بين بساطة نفسه وتعقد حياته المتعاظم، حتى في قلب الحياة الاميركية، فظل جوهر هذه النفس يتلألأ نقياً صافياً في غمرة هذه الحياة دون أن يصدأ أو يتفتت، وهو واع، برغم سكره، على هذه الحال الفريدة... ومن هنا كانت مأساة حياته. وقد انفرد بذلك بين شعراء الأرض المحتلة، فشعراء المقاومة ظلت نفوسهم نقية وصافية كما ظلت حياتهم، وان تعقدت، على نمط واحد خلال تبعات النضال والعمل الحزبي والوطني وما ترتب على ذلك من مواقف السلطة وعنتها، مما زاد في نقائهم وصدقهم وتفانيهم، وهم بهذا النمط من الحياة راضون، وعليه واعون. أما الشعراء الآخرون، فقد تعقدت حياتهم وفسدت مع تعقدها نفوسهم. ومع وعيهم على ذلك، فهم أيضاً راضون قانعون. أما راشد، وقد وقفنا على بعض ملامح من حياته، ورأينا صلته، وهو لا يزال طالباً في المدرسة الثانوية، مع الحركة الوطنية في الناصرة، والجماهير العربية في المدن والقرى، فقد أجبر منذ وقت مبكر، كما عرفنا، على علاقة مع الحكم العسكري، ربما كانت هي التي أفرخت، فيما بعد، بتوجيه وتخطيط مدبرين، صلته بالعمل في الصحافة الاسرائيلية التي غرق عن طريقها في حياة المدينة اليهودية بما فيها من شرب ونساء، فقد اختطف من حيث بدأ يبرز ويعرف بين الجماهير العربية في فلسطين المحتلة. ربما كان ذلك كله مخططاً له، ولكن راشداً، وان غرق في هذه الحياة، فقد ظل الشاب القروي الذي لم تفسد نفسه، فهو، وإن وجد في تلك الحياة متعته أو بعضها، فإنه لم يكن مقتنعاً بها ولا راضياً عنها في أعماق نفسه. ومن هنا كان هذا الانفصام الظاهري أو الازدواجية في حياته، فهو صحفي في الدولة، وإن كان في صحافة حزب معارض، وفي الوقت نفسه له علاقة مع الحركة الوطنية في البلاد من خلال الجماهير وجماعة الأرض ورجالاتها ونشراتها، وحتى مع الحزب الشيوعي ودورياته في بعض الأحيان، على الرغم من اختلافه معه... يعمل سراً ويكتب بأسماء فنية مستعارة.